فسألهُ: وهل أتى بالملح. فقام رهط من الجلوس ودسّوا جثّة الميت فوجدوا لفافةً فيها الملح. فوجّه الشيخ الكلام نحوي قائلًا: « سيّدي انَّ ولدي اتاك بالملح فقم بلا تكلّف وشرّفني باكل طعامي ». ثم اراد ان ينشّطنا على الاكل فاخذ دُبلةً من الكسكس وادخلها فاهُ وقال للجلوس: « هيّا باسم الله يا اسيادي كلوا »

فلمّا رأيتُ هذا الجَلَد وسمعت هذا الكلام عمل فيَّ منظر الشيخ عملًا لا يوصف فاندفعت ابكي وعلا صوت نحيبي. ثم خرجت من الدوّار وحدي رغمًا عن العاصفة واهوال الليل وقفر المكان لا اعي. فقام الشيخ مع الحضور ليوقفوني ويردّوني الى المنزل الّا انّي لم أُعِرْهم سمعي ولم انكص على الاعقاب لتوسّلاتهم والحاحهم بل سرتُ هائمًا في وجهي الى ما شاء الله

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

للاب هنري لامنس اليسوعي (تتمّة)

٦

اثبتنا في ما سبق انَّ القديس مارون عاش وتوفّي في القورسيّة. وفيها دُفن ايضًا ليس بعيدًا عن مكان وفاتهِ. وذلك واضحٌ لمن اعتبر قول تيادوريطس. وقد ادّى بنا من جهة أُخرى مجال البحث في الفصل السابق الى ان نجعل دير القديس مارون قريبًا من افامية اعني على مسافة نحو مئة كيلومتر جنوبيًّا من قورس. وكأنّي بالقارئ يستغرب الامر ويجد في تعيين موقع هذا الدير خارجًا عن القورسيّة بعض التناقض ويشك في صحّة النتائج التي استنتجناها

كلّا لا تناقض في ما قلنا. وان يكن في الامر مشكل. وانّما المشكل اعظم واقوى اذا ما جعلنا موقع دير القديس مارون في جهات حمص

اعلم انّهُ لا يُعرف نصٌّ واحد يذكر صريحًا انَّ جسم القديس مارون دُفن في افامية. بل في قول تيادوريطس ما هو عكس ذلك. وانّما يثبت التقليد انَّ راس الناسك القديس بعد خراب ديرهِ القريب من افامية نُقل الى لبنان

امَّا ذخائر القديس فلا نعلم أُنقلت ايضاً بعد وفاتهِ ببضع سنوات الى جهات افامية ام لا وان كان الامر محتملًا ولعلَّ الباحثين يجدون حلًّا لهذا المشكل في التفاصيل التاريخية النادرة التي كُتبت عن اديار افامية ونواحيها

وكانت هذه الاديار كثيرة قد ذكر منها تودوريطس في رسالتهِ الـ ١١٩ ديرًا « موقعهُ على ثلاثة اميال من افامية » طلب ان يعتزل فيهِ وهو يسميهِ ديرَهُ كانهُ عاش فيهِ العيشة الرهبانيَّة (١

ونعرف فضلًا عن هذا الدير قرب افامية ديرًا آخر شهيرًا وهو دير مار بسُّوس (٢ الذي نشر عنهُ الخوري شابو كتابًا موسَّعاً (٣ وممَّا ورد في اثنائهِ انَّ عدد رهبانهِ بلغ ٦٣٠٠ راهب (ص ٦١). الَّا ان صاحب هذا الكتاب قد وهم بقولهِ انَّ هذا الدير كان في بلاد حمص او قريباً من هذه المدينة (٤ والصواب انَّ دير مار بسُّوس كان بجوار افامية . وفي ما سبق اشرنا الى هذا الغلط وسببهِ ولا نخال انَّ الكتبة خلطوا بين دير مار بسُّوس ودير مار مارون لوقوع كلا الديرين في جوار افامية . والدليل عليهِ انَّ للديرين اسماً مختلفاً فضلًا عن انَّ دير مار بسُّوس اضحى بعد قليل مركزًا للبدعة اليعقوبيَّة (٥

فوجود عدد وافر من الاديار في نواحي افامية برهان جديد على ما كان لتلك المناسك من المقام الرفيع والشهرة الذائعة ولا حَرَج بعد ذلك ان نسلّم بصحَّة ما رواه الرواة عن خطر دير القديس مارون وعظم شأنهِ

وممَّا اخبر بهِ تودوريطس ايضاً انَّ القديس الناسك مرقيان القورسيّ ارسل واحدًا من تلاميذهِ اسمهُ اغابيتس فوكل اليهِ بان يعمّر اديرة عديدة بقرب افامية وبالاخص عند نقيرتا (Νικερτα) « وهي بلدة واسعة كثيرة السكَّان ابتنى فيها اغابيتس معهدين

---

١) انَّ تودوريطس كان راهبًا الى سنة كهنوتهِ فدخل في جملة اكليرس انطاكية

٢) راجع كتاب العلَّامة روبنس دوفال في الاداب السريانية (ص ٢٥٣) والمجلة الشرقيَّة الالمانيَّة ZDMG, XXX 217

٣) راجع J.-B. Chabot : *La légende de S^t^ Bassus et son couvent à Apamée*, 1893.

٤) قد جاء في مجلَّة الشرق المسيحي ذكر دير ثالث في افامية (ROC. p. 1902, 611.)

٥) راجع ايضاً مقدَّمة الخوري شابو (ص ٥ و ٩)

لتعليم الحكمة السموية دُعي الواحد باسمهِ. وجمع فيهما فوق المئتي راهب تجنّدوا للفضيلة ولازموا التُقى(١)». وقد ورد اسم نقيرتا هذه في كتابتين يونانيتين تراهما في مجموع الكتابات اليونانية (٢ تحت العددين ٩٨٥٥ و ٩٨٧٧ وفي جدول المخطوطات السريانية المصرنة في المتحف البريطاني (Wright, *Cat.* 756. c. 2) اسم رئيس تولّى رئاسة دير نقيرتا. امّا نقيرتا المذكورة فليس لدينا نصٌ صريح يفيدنا عن موقعها بالتدقيق في جوار افامية لقلّة ما نعلم من امور تلك الناحية (٣

ولعلّ سائلًا يطلب او ليس دير القديس مارون احد الاديار التي ابتناها القديس اغاپيتوس في جوار افامية ؟ اجبنا انّهذا لرأي سبقنا اليهِ حضرة الاب جوليان اليسوعيّ في كتابهِ عن « جبل سينا وسوريّة (٤) » ولا نرى داعياً لانكارهِ اذ انّ درس الامكنة ومواقعها لا يخالف هذا المذهب ولهُ سندٌ في التاريخ لانّ وفاة القديس اغاپيتوس وقعت بعد وفاة القديس مارون. على انّنا لا نوافق حضرة الاب جوليان في زعمهِ بان « دير القديس مارون كان بين افامية وحمص على ضفّة العاصي ليس بعيدًا عن حمص في المكان المعروف اليوم بالدير الكبير (٥) »

قد مضى علينا نحو ثلاث سنوات مذ زرنا قرية الدير الكبير الواقعة على مسافة ساعة ونصف من حمص في شمالها الغربيّ على ضفّة العاصي الغربيّة ووجدنا فيها آثارًا قديمة. بيد انّ نظرها لم يُعدل بنا عن راينا وفي حجتنا السابقة ما هو كافٍ لبيانهِ. وعندنا انّ حضرة الاب جوليان خُدع بما كتبهُ المؤرخ الشهير صاحب حماة الملك المؤيد ابو الفداء وهو يجعل الدير في حمص نفسها. ثم غرَّهُ ايضًا اسم « الدير الكبير » الّا انّ سالنامة ولاية سوريّة روت اسم هذه القرية على صورة اخرى فدعتها « الدار الكبير » ولعلّ الصواب « الظهر (الضهر) الكبير » كما سمعناهُ او فهمناهُ من اهل القرية. وهذا الاسم يوافق المسمّى لانّ القرية على ظهر ربوةٍ

---

١) راجع تاريخ الرهبان في مجموع مين (ج ٨٢ ص ١١٢٨)

٢) CIG, 9855 et 9877

٣) طالع ما كتبهُ في هذا الصدد الاستاذ هرتمان (ZDPV, XXIII, 145)

٤) Jullien: *Sinaï et Syrie*, p. 178

٥) فيهِ صفحة ١٧٨

وقد ذهب الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخهِ المخطوط عن لبنـان الى راي آخر نستلفت اليهِ نظر القارئ. قال المؤلف المذكور الذي وقف كل حياتهِ على البحث عن لبنان وتاريخهِ: « لا يبعد ان القديس ماري (Marès) الراهب القسّ في ناحية افامية الذي وجّه اليهِ القديس يوحنّا فم الذهب رسالةً (١ هو القديس مارون عينهُ (٢. لان الاسمين ماري ومارون لا يختلفان عند كتبـة اليونان في سوريّة وليس ماري سوى مارون مع اختلاف حركة الاعراب في اليونانيّة فشاع هذا الاسم في الناحية. امّا تلقيبهُ بالقديس فقد جرى على ذلك رهبانهُ تبجيلاً لهُ فاقتدى بهم فم الذهب

« ومثالنا في ذلك مثال ديرين آخرين في جهات افامية عُرف الواحد منهما باسم القديس سمعان والآخر باسم القديس اغاپيتوس (٣ وتؤيد هـذا الراي المخالف للراي العموميّ رواية تودوريطس في تاريخهِ (٤ الذي يفيدنا انّ جمهور الرهبـان الذين اتوا من القورسيّة الى بلاد افامية لينشئوا فيها الاديار كانوا تلامذة للقديس الناسك مارقيان ليس تلامذة القديس مارون لانّ المؤرخ المذكور افادنا انّهُ لم يخرج احد من رهبان القديس مارون من بلاد قورس (٥. ولا يبعد انّ تلاميـذ القديس مارقيان وكان اصلهم من بلاد قورس (٦ دعوا احد الاديرة التي شيّدوها في بلاد افامية باسم القديس مارون لاكرامهِ الّا انّ كلام تودوريطس صريح في القديس مارقيـان حيث قال: « ومارقيان الالهيّ هو الذي انشأ كلّ اديرة بلاد افامية (٧ » فلا يمكن اذن ان ينسب انشاء احد هذه الاديرة لتلامذة القديس مارون... ومن ثمّ لا نستغرب القول بان ماري الذي اوفد اليهِ القديس يوحنّا فم الذهب برسالتهِ كاحد رؤساء الدير مع القديس سمعان (٨ هو منشئ الدير وان عُرف باسمهِ اولًا دير القديس مارون. هذا ونقرّ انّ الافادات التاريخيّة في هذا الخصوص لخلّة جدًّا. ومن المحتمل انهم لم يميّزوا

١) هي الرسالة ٥٧ وهي غير رسالتهِ الى مارون الكاهن

٢) هذا زعم لا يمكننا التسليم بهِ اذ انّ فم الذهب يثبت في هذه الرسالة ان ماري عاش في مقاطعة افامية خلافًا لما نعرفهُ عن القديس مارون

٣) راجع تودوريطس في تاريخهِ المذكور (ج ٨٢ ص ١١٢٨)

٤) في المجلد والصفحة عينها ٥) راجع تاريخ الرهبان (ع ١٦ و ٣٥)

٦) او على الاقلّ كبارهم الذين شيّدوا الاديرة ٧) تاريخ الرهبان (ع ٣)

٨) راجع رسالة القديس يوحنّا فم الذهب ١١ ٥٥

بين القديس مارون والقديس مارقيان الذي ورد مكتوبًا في بعض النسخ ماريان (١ »

هذا ما رواهُ الاب مرتينوس في تاريخهِ وهو زعم نوردهُ على علّاتهِ دون ان نحكم فيهِ (٢ . وما يزيدهُ بعض الرجوح شهرة القديس مارقيان فان اسم هذا القديس كان ذائعًا مستفيضًا حتى انَّ معاصريهِ شيَّدوا بيعةً على اسمهِ قبل وفاتهِ أفيستغرب احد ان يكون رهبانهُ حاولوا بعد مجيئهم من بلاد قورس الى انحاء افاميـة ان يخلّدوا ذكرهُ بابتناء دير على اسمهِ . وعلى كل حال لو صحّ هذا الراي لفُضَّ المشكل الذي نحن بصـددهِ ويظهر لكل العيان كيف دُعي احد اديرة افامية باسم القديس مارون الذي توفّي في القورسيَّة . وما لا شبهة فيهِ انَّ في السنين الاولى من القرن السادس كان الدير المذكور لا يُنسب الى غير القديس مارون وان افترضنا انَّ رهبان الدير حصلوا على قسم من ذخائر القديس مارون او على جسمـهِ الطاهر كلّهِ فلا عجب ان يكون التعبُّد للقديس امتدَّ الى كل جهات بلاد الشام

امَّا ما حدث بعد ذلك لدير القديس مارون فانَّ ابا الفداء يعلمنا في كتاب تقويم البلدان (ص ١١٤) انَّ الملك مرقيان وسَّعهُ في السنة الثانية لملكهِ اعني سنة ٤٥٢ . ولمَّا تحامل اليعاقبة على ابنيتهِ فاخربوها (٣ في اوائل القرن السادس اعاد بناءهُ الملك يوسطنيان الكبير (٤ الذي ضبط زمام الملك من سنة ٥٢٧ الى ٥٦٥

وقد اخبر سعيد بن بطريق في تاريخهِ انَّ هرقل الملك تفقَّد هذا الدير سنة ٦٢٨ لمَّا رحل ظافرًا الى سوريَّة فاوقف عليهِ اوقافًا عديدة (٥ . وفي عهد هـذا الملك جرت بين اليعاقبة ورهبان دير مار مارون مخاصمات ذكرها ابن العبري في تاريخـهِ الكنسي وقال ايضًا ان الموارنة اخذوا من اخصامهم عدَّة كنائس أبى هرقل ان تُردّ الى اليعاقبة (٦ . ولم يزل هذا الدير زاهـرًا في سنة ٧٤٥ كما ورد في نصّ سريانيّ نشر الخوري نو ترجمتهُ بالفرنسيَّة (٧

---

١) راجع تاريخ الاب مرتينوس الصفحة ٢٢٢٨ و ٢٢٢٩ ٢) الّا زعمهُ بان ماري ومارون اسم واحد فانّنا لا نسلّم بهِ ٣) وقيل انهُ خرب بزلزال

٤) راجع كتاب بروكوبيوس في الابنية (ك ٤ ف ٩) ٥) راجع اعمال آباء اليونان لمين (PPGG, CXI, 1089) وراجع الصفحة ١٣٩ من نسخـة تاريخ ابن بطريق الخطيَّة المصونة في مكتبتنا الشرقيَّة في ظهر الصفحة ٦) Chronicon Eccl. I, 270-274

٧) Bulletin de S. Louis des Maronites, Janvier 1907 p. 346

والمظنون انَّ خراب هـذا الدير تمَّ في القرن التاسع فاضطُرَّ رهبانهُ ان يأتوا الى لبنان مع سكَّان الناحيـة المجاورة لهُ. وفي قول المسعوديّ الذي اوردناهُ سابقًا انَّ دير القديس مارون كانت اغتالتهُ في عهدهِ (اعني في اواسط القرن العاشر) يد الزمان فخرب. ثمَّ لا تعود ترى لهُ من بعد ذلك اثرًا في التاريخ حتى انَّ ياقوت الرومي لم يذكرهُ في معجم البلدان مع انهُ افاض في وصف اديرة كثيرة اشتهرت في بلاد الشام منهـا خربة ومنها مأهولة بالرهبان. وكذلك تصفَّحنا تآليف جغرافيي العرب المتعدّدة لعلَّنا نجد شيئًا عن دير القديس مارون فذهبت مساعينا سدًى ولم نقف على ضالَّتنا مع انَّ هؤلاء الكتبة كرَّروا مرارًا اسماء الاديار الشاميَّة ورووا من ابيات الشعراء ما ورد فيـهِ ذكرها

وهذا لعمري من الامور الغريبة انَّ ديرًا طار اسمهُ في البلاد مدَّة القرنين السادس والسابع فاصاب من الشهرة ما اصاب في تاريخ سوريَّة الديني يصبح بعد مجـدهِ نسيًا منسيًا لاسيَّما انَّ دير القديس مارون لم يكن ديرًا منقطعًا لا نفوذ لهُ بل كان يدخل تحت حكمهِ اديار أُخرى تعرف لهُ حقوق السيادة كما كان شأن الاديرة في سوريَّة الشمالية وسوريَّة الوسطى فانَّ اديرتها الرهبانيَّة كانت ترتبط بين بعضها بروابط متينـة بحيث تكون السيطرة لدير اعظم تخضع لرئاستهِ بقيَّة الاديار المجاورة لهُ (١. وهو امرٌ يصدق في دير القديس مارون الذي امتدَّت رئاستهُ على سائر اديار سوريَّة الثانية. غير انَّهُ يعزُّ علينا ان نبيّن حدود هذه الرئاسة وسعة نطاقها. فلا نعلم أكانت هـذه الرئاسة شرفيَّة محضًا او كان لرئيس الدير الكبير بعض السلطة على بقيَّة الاديرة. كما انهُ يصعب علينا ان نبيّن اصل هذه السلطة فلا ندري أكانت ناتجة عن تفرّع دير من آخر او بارادة منشئ الاديرة او بخروج مستعمرة رهبانيَّة من الدير الاكبر فكل هـذه المباحث عويصةٌ لا يُستطاع حلُّها سهلًا

وعلى كل حال ان تقدّم دير مار مارون ورئاستهُ على بقيَّة الاديار لمن الامور الحريَّة بالاعتبار فانَّ ذلك يبيّن لنا كيف امتدَّت سريعًا الطائفـة المارونية ليس فقط في بلاد افامية لكن في الايالات الخارجة عنها ايضًا. وعلى راينا انَّ كل دير من هذه الاديار

١) راجع ما كتبهُ في ذلك العلَّامة نلدكه (ZDMG, 1875 p. 423, note)

المنوطة بدير القديس مارون اضحى بعد مدّة مركزًا لفئة من المؤمنين الذين نموا عددًا بعد حين وانتسبوا الى القديس مارون. وفي مقالتنا السابقة عن انتشار الموارنة رأينا كيف خرج منهم فئات دخلوا لبنان واستعمروا الجهات الموافقة لنموّهم وازديادهم

فيرى القارئ انّ هذا البحث الجغرافيّ عن سيرة القديس مارون يرتبط بالبحث السابق اعني اصل الطائفة المارونية وكيفيّة انتشارها. وهذا ما حملنا على التدقيق في تعريف الامكنة التي نشأ فيها القديس مارون كيف لا وهو ابو طائفة تُعَدّ من اعظم الامم اللبنانيّة عطّرها هذا الرجل العظيم بعيشتهِ وموتهِ

وفي الختام احببنا ان نلخّص للقرّاء ما اتّسعنا في بيانه في هذه المقالة لتبقى خلاصتها في ذاكرتهم :

١ً لا مراء انّ القديس مارون عاش ومات في القورسيّة

٢ً انّ الرأي الاصوب في مولدهِ انهُ ولد ايضاً في القورسيّة وليس في جوار انطاكية

٣ً دُفن القديس مارون في حدود القورسيّة الجنوبيّة

٤ً كان موقع دير القديس مارون مَهد الطائفة المارونية بين نهر العاصي وافامية. وهذا مما لا ريب فيهِ

٥ً امّا كيف دُعي هذا الدير باسم القديس مارون وكيف نقلت اليهِ ذخائرهُ فامران لا يمكن القطع بهما فنتمنّى ان يحكم غيرنا فيهما حكماً فصلًا فيصرّح الحقّ عن محضهِ (تمّت)

يمين العلي

رواية تاريخية للاب س. ت اليسوعيّ (تابع)

كتاب لوقيليوس الى الضابط راسيوس

في ١٥ آذار

أيُها العزيز

قد اجبتُك سابقًا عن رقيمك الذي وجّهتَهُ اليَّ من قيسريّة فيلبُّوس. الّا انّ